بسم الله الرحمن الرحيم

٣٦ ـ سورة يس

هى مكية . واستثنى منها بعضهم قوله تعالى[١] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ) الآية لما أخرجه الترمذىّ[٢] والحاكم عن أبى سعيد قال : كانت بنو سلمة فى ناحية المدينة . فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية . ولا حاجة لدعوى الاستثناء فيها وفى نظائرها. لأن ذلك مبنىّ على أن المراد بالنزول أن الواقعة كانت سبباً لنزولها ، مع أن النزول فى الآثار يشمل ذلك ، وكل ما تصدق عليه الآية ، كما بيناه مرارا . لاسيما فى المقدمة . يؤيده أنه جاء فى هذه الرواية أنه ﷺ قرأ لهم هذه الآية . كما فى رواية الصحيحين[٣]. وهكذا يقال فيما روى أن آية[٤] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) من هذه السورة نزلت فى المنافقين . فإن المراد ماذكرناه . ولم يهتد لهذا التحقيق أرباب الحواشى هنا ، فاحفظه . وآيها ثلاث وثمانون آية . ومما روى فى فضلها ما أخرجه[٥] الترمذىّ عن أنس رفعه : إن لكل شىء قلباً وقلب القرآن يس ، وفى إسناده ضعف.

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٢) أخرجه فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٣٦ ـ سورة يس، ١ ـ حدثنا محمد بن وزير الواسطى

(٣) أخرجه البخارى فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٣٣ ـ باب احتساب الآثار، حديث ٤١٥ ، عن أنس ، وليس فى مسلم .

(٤) [٣٦ / يس / ٣٧] .

(٥) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ٧ ـ باب ما جاء فى فضل يس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يٰسٓ)

« يٰسٓ » تقدم الكلام فى مثل هذه الفواتح مرارا . وحاصله ـ كما قاله أبو السعود ـ أنها إما مسرودة على نمط التعديد ، فلا حَظَّ لها من الإعراب ، أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه . وعليه الأكثر . فمحله الرفع على أنه خبر محذوف . أو النصب ، مفعولا لمحذوف ، وعليهما مدار قراءة (يٰسَ) بالرفع والنصب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ)

« وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة أو الناطق بالحكمة ، ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف ، منزلة الرأس ، وكانت أخص أوصاف التنزيل ، أُوثِرَتْ فى القَسَمِ به دون بقية صفاته ، لذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[٤] (عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » وهو الموصل إلى المطلوب بدون لغوب. والتنكير للتفخيم والتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ)

« تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ » بالنصب على إضمار فعله ، وبالرفع خبر لمحذوف . أو خبر لـ (يس) إن كان اسماً للسورة . أو مؤولا بها . والجملة القسمية معترضة . والقسم لتأكيد المقسَم عليه والمقسَم به ، اهتماماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ)

« لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ » أى برسول ولا كتاب « فَهُمْ غَـٰفِلُونَ » أى عن أمر حق الخالق والمخلوق ، بالكفر والفساد ونكران البعث والمعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ » أى استأهلوا لأن ينزل بهم العذاب وينتقم منهم أشد الانتقام « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا ويهتدوا ، كفرا وكبرا وعنادا. وبغيا فى الأرض بغير الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ)

« إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ » أى اللحى . أى واصلة إليها وملزوزة إليها « فَهُم مُّقْمَحُونَ » أى ناصبو رؤوسهم ، غاضّو أبصارهم . يقال : أقمح الرجل ، رفع رأسه وغض بصره . وأقمح الغلّ الأسير ، إذا ترك رأسه مرفوعا لضيقه ، فهو مقمح . وذلك إذا لم يتركه عمود الغلّ الذى ينخس ذقنه ، أن يطأطئ رأسه . قال ابن الأثير : هى فى

قوله تعالى (فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ) كناية عن الأيدى لاعن الأعناق . لأن الغلّ يجعل اليد تلى الذقن والعنق ، وهو مقارب للذقن . وقال الأزهرىّ : أراد عز وجل أن أيديهم لما غلّت عند أعناقهم ، رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعُدًا ، كالإبل الرافعة رؤوسها . وهذا معنى قول ابن كثير : اكتفى بذكر الغل فى العنق ، عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين ، لدلالة السياق عليه . فإن الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

« وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » قال الزمخشرىّ : مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لاسبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين ، فى أنهم لايلتفتون إلى الحق ولايعطفون أعناقهم نحوه ، ولايطأطئون رؤوسهم له . وكالحاصلين بين سدّين . لا يبصرون ماقدامهم ولاماخلفهم ، فى أن لاتأمل لهم ولا تبصر . وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله . انتهى . أى فالمجموع استعارة تمثيلية . وفى (الانتصاف) للناصر : إذا فرقت هذا التشبيه ، كان تصميمهم على الكفر مشبها بالأغلال . وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه ، مشبها بالإقماح . لأن المقمح لا يطأطئ رأسه . وقوله (فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ) تتمة للزوم الإقماح لهم . وكان عدم الفكر فى القرون الخالية مشبها بسدّ من خلفهم ، وعدم النظر فى العواقب المستقبلة مشبهاً بسد من قدامهم انتهى . فيكون فيه تشبيه متعدد . قال الشهاب : والتمثيل أحسن منه . انتهى .

ثم قال الناصر : يحتمل أن تكون الفاء فى (فهم مقمحون) للتعقيب ، كالفاء الأولى . أو للتسبّب . ولا شك أن ضغط اليد مع العنق فى الغلّ يوجب الإقماح . فإن اليد ، والعياذ بالله ، تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن ، دافعة بها ومانعة من وطأتها . ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير . فإن

اليد متى كانت مرسلة مخلاة ، كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها . ولعله يتحيّل بها على فكاك الغلّ ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة . فيضاف إلى ماذكرناه من التشبيهات المفرقة ، أن يكون انسداد باب الحيل عليهم فى الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم ، مشبها بغلّ الأيدى . فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص . انتهى .

وإنما اختير هذا ، لأن ماقبله وما بعده فى ذكر أحوالهم فى الدنيا . وجعله أبوحيان لبيان أحوالهم فى الآخرة ، على أنه حقيقة لا تمثيل فيه . فورد عليه أن يكون أجنبياً فى البين . وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله[1] (حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ) والأول أدق ، وبالقبول أحق.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ » أى خوفتهم بالقرآن « أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لايريدون أن يؤمنوا . ولما صدقت الآية على مثل أبى جهل وأصحابه من كفرة قريش ، الذين هلكوا فى بدر ، وكانوا طواغيت الكفر ، أشار بعضهم إلى أن الآية نزلت فى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

« إِنَّمَا تُنذِرُ » أى الإنذار المترتب عليه النفع « مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ » أى القرآن بالتأمل فيه والعمل به « وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ » أى عمل الصالحات لوجهه ، وإن كان لا يراه « فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ » أى لذنوبه فى الدنيا « وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » أى ثواب حسن فى الجنة .

(١) [٣٦ / يس / ٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ، وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ » أى للبعث « وَنَكْتُبُ مَاقَدَّمُوا۟ » أى نحفظ عليهم ماأسلفوا من الخير والشر « وَءَاثَـٰرَهُمْ » أى ماتركوه من سنة صالحة، فعمل بها بعد موتهم. أوسنة سيئة فعمل بهـا بعدهم « وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ » أى فى اللوح المحفوظ ، أو العلم الأزلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ)

« وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا » أى مثّل لأهل مكة مثلًا « أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ » أى اذكر لهم قصة عجيبة ، قصة أصحـاب القرية « إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ » أى الدعاة إلى الحق ورفض عبادة الأوثان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ)

« إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » أى فقوّيناهما برسالة ثالث « فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ)

[١٦] (قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)

[١٧] (وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ)

«قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ* قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ* وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ» أى التبليغ عن الله ظاهراً بيّناً لاسترة فيه ، وقد خرجنا من عهدته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ » أى تشاءمنا بكم . فكان إذا حدث فى البلد ما يسىء من حريق أو بلاء ، نسبوه إليهم . وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم . وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شىء مالوا إليه واشتهوه ، وآثروه وقبلته طباعهم . ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه . فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا . كما حكى الله عن القبط[1] (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ) وعن مشركى مكة[2] (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ) أفاده الزمخشرىّ « لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ » أى عن دعوتكم إلى التوحيد « لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ، أَئِن ذُكِّرْتُم ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)

«قَالُواْ » أى الرسل «طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ » أى سبب شؤمكم معكم ، وهو الكفر والمعاصى «أَئِن ذُكِّرْتُم » أى وعظتم بما فيه سعادتكم . وجواب الشرط محذوف ، ثقة بدلالة ما قبله عليه . أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ » أى فى الشؤم والعدوان.

(١) [٧ / الأعراف / ١٣١] . (٢) [٤ / النساء / ٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ » أى يسرع فى المشى ، حيث سمع بالرسل « قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى بالإيمان بالله وحده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ)

« ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا » أى جُعْلًا ولا مالًا على الإيمان « وَهُم مُّهْتَدُونَ » أى فى أنفسهم بالكمالات والأخلاق الكريمة والآداب الشريفة . أى فيجدر أن يُتَأَسَّى بهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى » أى خلقنى . وهـذا تلطُّف فى الإرشاد بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه ، وإمحاض النصح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه . والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، كما ينبئ عنه قوله « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ)

« ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً » أى فأضرع إليها وأعبدها ، وهى فى المهانة والحقارة بحيث « إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ » أى من ذلك الضر ، بالنصر والمظاهرة . وفيه تحميق لهم ، لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق ، كيف يعبد ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنِّيٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

[٢٥] (إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ)

« إِنِّيٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ » أى فاسمعوا إيمانى واشهدوا به . قال السمين : الجمهور على كسر النون . وهى نون الوقاية ، حذفت بعدها ياء الإضافة . مجتزى عنها بكسرة النون ، وهى اللغة العالية . وقرأ بعضهم بفتحها وهى غلط . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ، قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ)

« قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ » أى ثواباً على صدق إيمانك وفوزك بسببه بالشهادة « قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ » أى ليقبلوا على ما أقبلت عليه ، ويضحوا لأجله النفس والنفيس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ)

« وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد موته بالشهادة « مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » أى لإهلاكهم « وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » قال الرازى : إشارة إلى هلاكهم بعده سريعا ، على أسهل وجه ، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ)

« إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » أى ما كانت العقوبة إلا صيحة واحدة من السماء هلكوا بها « فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » ميتون كالنار الخامدة . رمزاً إلى أن الحىّ كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب ، والميت كالرماد . كما قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ يَحُورُ رمادًا بعد إذْ هو ساطِعُ

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : روى عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وإن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح عيسى عليه السلام . كما نص عليه قتادة وغيره . وهو الذى لم يذكر عن أحد من متأخرى المفسرين ، غيره . وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها ـ أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل ، لا من جهة المسيح عليه السلام . كما قال تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) ولو كان هؤلاء من الحواريين ، لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام . والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا .

الثانى ـ أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم . وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح . ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللائى فيهن بطاركة . وهن : القدس لأنها بلد المسيح . وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها . والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطارقة والمطارنة والأساقفة والشمامسة والرهابين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطده . ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطرك من

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينَا ومَا تَبْلَى النجومُ الطوالعُ وتَبقى الجبالُ بعدنا والمَصَانعُ

يحور : يرجع ويتغير . وكل شىء تغير من حال إلى حال ، فقد حار (الشعر والشعراء ص٢٣٦)

رومية إليها ـ كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم ـ كسعد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ـ فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم .

الثالث ـ أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة . وقد ذكر أبو سعيد الخدرىّ رضى الله عنه وغير واحد من السلف ، أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم. بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكروه عند قوله تعالى[1] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ) فعلى هذا يتعين أن أهل هذه القرية المذكورة فى القرآن ، قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية ـ إن كان لفظها محفوظاً فى هذه القصة ـ مدينة أخرى غير المشهورة المعروفة . فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ، ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

وأقول : إن من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز فى الأنباء التى يقصها ، والإشارة منها إلى روحها وسرها ، حرصا على الثمرة من أول الأمر ، واقتصارا على موضع الفائدة ، وبعدا عن مشرب القصاص والمؤرخين . لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى . ومامن حاجة إلى تسمية تلك المبهمات كائنة ما كانت . ثم إن المفسرين رحمهم الله عنوا بالبحث والأخذ والتلقى . فكان من سلف منهم يَرَوْنَ فيما يَرَوْنَ أن من العلم تفصيل مجملات التنزيل وإبانة مبهماته . حتى جعل ذلك فنًّا برأسه وألف فيه مؤلفات . ولا بأس فى التوسع من العلم والازدياد منه بأى طريقة كانت . لاسيما وقد رفع عنا الحرج بالتحدث عن بنى إسرائيل. إلا أنه يؤاخذ من يجزم بتعيين مبهم ما، إن كان جزمه من غير طريق القواطع.

---

(١) [٢٨ / القصص / ٤٣] .

٥٠٠٠

فإن القاطع هو ماتواتر أو صحّ سنده إلى المعصوم، صحة لامغمز فيها. وهذا مفقود فى الأكثر، ومنه بحثنا المذكور. فإن تعيين أن البلدة أنطاكية وتسمية الرسل، إنما روى موقوفا ومنقطعا، وفى بعض إسناده متهمون . ولذا قدير د على من يقطع بذلك ما لامخرج له منه. فالمفسر أحسن أحواله أن يمشى مع التنزيل ، إجمالا فيما أجمله وتفصيلًا فيما فصله . ولا يأخذ من إيضاح مبهماته إلا بما قام عليه قاطع أو كان لا ينبذه العلم الصحيح . وإلا فليعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك ، بل عن تشويهها . والذى حمل السلف على قص ما نحن فيه ، هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب ، وموافقة من فى طبقتهما لهما فيه . هـذا أولا ، وثانيا شهرة بلدة أنطاكية فى ذلك العهد ، لا سيما وقد أسس فيها معبداً أحدُ رسل عيسى عليه السلام . ثالثا ما جرى فى أنطاكية لما قدم ملك الرومان وتهدد كل من أبى عبادة الأوثان بالقتل . وكان فى مقدمة الآبين رجل مقدم فى المؤمنين . فأراده على الشرك فأبى وجهر بالتوحيد . فأرسله من أنطاكية موثقاً وأمر بأن يطعم للوحوش : فألقى فى رومية إلى أسدين كبيرين فابتلعاه . ولما قدم لهما استبشر وتهلل لنيل الشهادة فى سبيل الله . وكذلك يؤثر عن رجل مؤمن كان يدافع عن المؤمنين فى عهد الرومانيين لغيرته وصلاحه. فطلب منه الحاكم أن يرتد فأبى وجهر بوجوب عبادة الإله الواحد ، ونبذ عبادة من لا يضر ولا ينفع . فهدده بأن يضربه من الرأس إلى القدم . فأجاب بأنه مستبشر بنعمة الله وكرامته الأبدية . ثم أمر به الحاكم فقتل مع رفقته . والشواهد فى هذا الباب لا تحصى . معروفة لمن أعار نظره جانباً مما كتب فى تواريخ مبدأ ظهور الأديان ، وما كان يلاقيه من أعدائه ومقاوميه . فللقصة الكريمة هذه مصدقات لا تحصى . رابعا شهرة المرسلين برسل عيسى عليه السلام ، وكانوا انبثوا فى البلاد لمحو الوثنية والكف عن الكبائر والشرور التى كانت عليها دولة الرومان وقتئذ . هذا وما ذكره ابن كثير من وقوف عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة يحتاج إلى قاطع . وإلا ، فقد خربت كثير من البلاد الأثيمة بعدها، وتدمرت بتسليط الله من شاء عليها . والصيحةُ

أعم من أن تكون صيحة سماوية أو صيحة أرضية. وهي صيحة من سلط عليهم للانتقام منهم، حتى أباد ملكهم وقهر صولتهم ومحا من الوجود سلطانهم. وإن كان عذاب الصيحة ظاهره الأول . وبالجملة فنحن يكفينا من النبإ الاعتبار به وفهمه مجملا ، وأما تعيينه ، بوقت ما ، وفئة ما، فهو الذى ينشأ منه ما ينشأ. وما بنا من حاجة إلى الزيادة عن الاعتبار، وتخصيص مالا قاطع عليه .

الثانى ـ ذكر الرازىّ فى قوله تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَآ) لطيفة، إن صح أن الرسل المنوه بهم هم رسل عيسى عليه السلام . وهى أن إرساله لهم كإرساله تعالى . لأنه بإذنه وأمره . وبذلك تتمة التسلية للنبىّ صلوات الله عليه ، لصيرورتهم فى حكم الرسل .

ثم قال : وهـذا يؤيد مسألة فقهية . وهى أن وكيل الوكيل بإذن الموكل ، وكيل الموكل لا وكيل الوكيل . حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه ، وينعزل إذا عزله الموكل الأول . انتهى .

الثالث ـ فى قوله تعالى (وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم كما فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

«يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ» أى يا ندامة عليهم تكون يوم القيامة بسبب استهزائهم وسخريتهم فى الدنيا بالناصحين ، حتى أفضى بهم الحال إلى قتلهم كما فعل أصحاب القرية . أو المراد شدة خسرانهم حتى استحقوا أن يتحسر عليهم أهل الثقلين . أو التحسر منه تعالى مجازا . وتقريره أن التحسر ما يلحق المتحسر من الندم

حتى يبقى حسيرا . وهو لا يليق به تعالى . فيجعل استعارة ، بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله فرضا ، فيقول ، ياحسرة على عبادى . قيل : وهو نظير قوله تعالى[1] (بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ) على القراءة بضم التاء ، فالنداء للحسرة تعجب منه . والمقصود تعظيم جنايتهم . أى عدّها أمرا عظيما يتعجب منه . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« أَلَمْ يَرَوْا » أى يخبروا « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ » أى من الأمم الخالية « أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

« وَإِن كُلٌّ » أى من هؤلاء المتفرقين « لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى إلا جميعهم محضرون للحساب والجزاء ، وإنما أخبر عن (كل) بجميع ومعناها واحد ، لأن (كلا) تفيد الإحاطة حتى لا ينفلت عنهم أحد . و (جميع) تفيد الاجتماع ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وبينهما فرق . ومن ثم وقع أجمع فى التوكيد تابعا (لكل) ، لأنه أخص منه وأزيد معنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)

[٣٤] (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ)

[٣٥] (لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

« وَءَايَةٌ لَّهُمُ » أى عبرة لأهل مكة عظيمة « ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا » أى بالنبات

(١) [٣٧ / الصافات / ١٢] .

لتدل على إحياء الموتى « وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » أى: وليأكلوا مما عملته أيديهم ، وهو مايتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما ، على ما استظهره القاضى . وقال الزمخشرىّ : أى عملته بالغرس والسقى والآبار . قيل وهذا التفسير خلاف الظاهر . أى لاحتياجه إلى تجوز . إلا أن فيه تذكيرا بلذة ثمرة العمل وسرور النفس بعده . وفى الحديث (أفضل الكسب بيع مبرور ، وعمل الرجل بيده) رواه الإمام[1] أحمد عن أبى بردة . وجوّز أن تكون (ما) نافية، والمعنى: أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» أى خالق هذه النعم الجسام بعبادته وحده . وهو إنكار لعدم قيامهم بواجب الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)

« سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا » أى الأصناف كلها « مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ » أى مما ذكر وغيره « وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ » يعنى الذكر والأنثى « وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » أى من الأصناف والأنواع الموجودة فى البر والبحر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)

«وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ» بيان لقدرته تعالى فى الزمان، إثر ما بيّنها فى المكان. أى نزيله ونكشفه عن مكانه. استعير لإزالة الضوء، السلخ الذى هو كشط الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ. وفيه إشارة إلى أن النهار طارىء على الليل، كما أن المسلوخ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٦٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

منه قبل المسلوخ ، الذى هو كالغطاء الطارئ على المغطى . قال الشهاب : لان الليل سابق عرفا وشرعا . ومعنى (مظلمون) داخلون فى الظلام . يقال (أظلمنا) كما يقال: أعتمنا وأدجينا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ)

« وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا » أى لحدّ لها مؤقت مقدر ينتهى إليه دورها اليومىّ أو السنوىّ . شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره . فالمستقر اسم مكان تقطعه فى حركتها الدائمة ثم تعود . ووجه الشبه الانتهاء إلى محل معين ، واللام تعليلية أو بمعنى (إلى) . وقيل مستقرها منقطع جريها عند خراب العالم . ومستقر، عليه، اسم زمان « ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » أى ذلك الجرى المتضمن للحكم والمصالح والمنافع، والمدهش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ)

« وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ » أى صيرنا له منازل ينزل كل ليلة فى واحد منها « حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ » أى حتى إذا كان فى آخر منازله ، دق واستقوس وصار كالعذق المقوس اليابس ، إذا حال عليه الحول . فالعرجون هو الشمروخ ، وهو العنقود الذى عليه الرطب ، ويسمى العذق ، بكسر العين . والقديم: العتيق ، وإذا قدم دق وانحنى واصفرّ . فشبه به من ثلاثة أوجه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

« لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ » أى تجتمع معه فى وقت واحد، وتداخله فى سلطانه فتطمس نوره « وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ » أى يسبقه بأن يتقدم على وقته فيدخل قبل مضيّه . أو المراد بالليل والنهار آيتاهما . أى ولا القمر سابق الشمس فيكون عكساً للأول . أى ولا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس . والمعنى على هذا ، أن كل واحد منهما لايدخل على الآخر فى سلطانه ، فيطمس نوره ، بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى ، وعليه فسر إيثار (سابق) على (مدرك) كما قبله ، هو أن السبق مناسب لسرعة سير القمر. إذ السبق يشعر بالسرعة ، والإدراك بالبطء . وكذلك الشمس بطيئة السير تقطع فلكها فى سنة . والقمر يقطعه فى شهر . فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالإدراك . والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف) : يؤخذ من هذه الآية أن النهار ، تابع لليل، وهو المذهب المعروف للفقهاء . وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التى هى آية النهار غير مدركة للقمر الذى هو آية الليل .

وإنما نفى الإدراك لأنه هو الذى يمكن أن يقع ، وذلك يستدعى تقدم القمر وتبعية الشمس . فإنه . لا يقال (أدرك السابقُ اللاحق) ولكن (أدرك اللاحقُ السابق) وبحسب الإمكان توقيع النفى . فالليل إذاً متبوع والنهار تابع . فإن قيل: هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار ، وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً ؟ فالجواب أن هذا مشترك الإلزام . وبيانه : أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء ، أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة ، أو اجتماعهما . فهذا القسم الثالث منفىّ بالاتفاق . فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه . وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً . لأن من قال إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال (ولا الليل يدرك النهار) فإن المتأخر إذا نفى إدراكه

كان أبلغ من سابقه ، مع أنه يتناءى عن مقتضى قوله (لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ) تنائيًا لا يجمع شمل المعنى باللفظ . فإن الله تعالى نفى أن تكون مدركة ، فضلا عن أن تكون سابقة . فإذا أثبت ذلك ، فالجواب المحقق عنه ، أن النفىّ السبقية الموجبة لتراخى النهار عن الليل ، وتخلل زمن آخر بينهما . وحينئذ يثبت التعاقب ، وهو مراد الآية . وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما ، فإنه غير معتبر . ألا ترى إلى جواب موسى بقوله[1] (هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى) فقد قربهم منه عذراً عن قوله تعالى[2] (وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ) فكأنه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره . فكيف لو كان متقدماً وهم فى عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة ، فذاك لو اتفق ، لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سبقاً . فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل ، مخالفا صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل . فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية ، وبين السبق بوناً بعيداً ، ومخالفاً أيضاً لبقية الآية . فإنه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً ، لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك ، ولا يبلغ به عدم السبق . ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً ، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن . وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده . انتهى .

« وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل مما ذكر يجرون فى مدار عظيم كالسابح فى الماء . وتقدم لنا فى سورة الأنبياء ، ماقاله بعض علماء الفلك فى مثل هذه الآية . فراجعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ)

« وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ » أى حملنا أولادهم الذين يرسلونهم

---

(١) [٢٠ / طه / ٨٤] . (٢) [٢٠ / طه / ٨٣].

فى تجاراتهم. قال الشهاب: ولا يخفى مناسبته لقوله قبله (فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وذكر (المشحون) أقوى فى الامتنان بسلامتهم فيه، أو لأنه أبعد عن الخطر، وقيل المراد فلك نوح عليه السلام. فهو مفرد، وتعريفه للعهد. والمعنى حمل آباءهم الأقدمين الذين بهم حفظ بقاء النوع لما عمّ الطوفان، ونجوا مع نوح فى السفينة. وإنما كان آية، لأن بقاء نسلهم ونجاتهم بسفينة واحدة، صنع عجيب ومقدور كبير. وآثر البعض الوجه الأول، لأن الثانى محتاج للتأويل. وأرى جدارة الثانى بالإيثار لقاعدة الحمل على الأشباه والنظائر، ماوجد له سبيل. لأنه أقرب وأسدّ. وقد جاء نظيره آية[٢] (إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ) وإن ورد فى نظير الأول آية[٢] (وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ) وأشباهها، إلا أن لفظ الحمل اتحد فى الآيتين، فقارب ما بينهما.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٢] (وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ)

« وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ » أى مثل الفلك « مَا يَرْكَبُونَ » أى من الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل، حتى شاع إطلاق السفينة عليها. كما قيل (سفائن برٍّ والسراب بحارها) أوما يركبون، أى من السفن والزوارق على الوجه الثانى. وهو أن يراد بالفلك سفينة نوح.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٣] (وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ)

« وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ » أى لامغيث لهم، أولا مستغيث منهم، أولا استغاثة. وذلك لأن الصريخ يكون المغيث والمستغيث وهو الصارخ. ومصدرا للثلاثى

(١) [٦٩ / الحاقة / ١١، ١٢]. (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٤].

كالصراخ ، يتجوز به عن الإغاثة ، لأن المغيث ينادى من يستغيث به ويصرخ له ، ويقول . جاءك العون والنصر . أنشد المبرد[1] فى أول الكامل :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ ... كان الصراخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيبِ

أى إذا أتانا مستغيث ، كانت إغاثته الجد فى نصرته .

« وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ » أى ينجون من الموت به .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ)

« إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ » أى لكن رحمناهم ومتعناهم إلى زمن قدر لهم ، يموتون فيه بعد النجاة من موت الغرق . ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله[2] :

وإِنْ أَسْلَمْ فَمَا أَبقَى ولكن ... سَلِمْتُ مِنَ الحِمَامِ إِلى الحِمَامِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع الخالية فى الأمم المكذبة للرسل « وَمَا خَلْفَكُمْ » أى من العذاب المعدّ فى الآخرة ، أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ،

---

(١) قائله سلامة بن جندل السعدىّ . وهو البيت السادس والثلاثون من المفضلية الثانية والعشرين ، التى مطلعها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيبِ ... أَوْدَى وذلك شأْوٌ غيرُ مطلوبِ

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

مَلُومكما يجلّ عن الملامِ ... ووقعُ فعالِهِ فوقَ الكلامِ

قالها لما نالته بمصر حمّى . فقال يصفها ويعرّض بالرحيل عن مصر .

أو عكسه ، أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى باتقائكم وشكركم. وجواب (إِذَا) محذوف دل عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

« وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ » أى الدالة على صدق الرسل « إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ » بالتكذيب والصدّ عن الإيمان بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ » أى تصدقوا على الفقراء من مال الله الذى آتاكم « قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة الله . وقولهم هذا، إما تهكم أو عن اعتقاد . وجوز أن يكون (إِنْ أَنتُمْ) جواباً من الله لهم، أو حكاية لجواب المؤمنين. وفى هذه الآية أبلغ زجر عن اقتصاص ما يحكى عن البخلاء ، فى اعتذارهم بمثل ما ضلل به المشركون ومجاراتهم فيه . فإن ذلك من اللؤم وشح النفس وخبث الطبع . وإن كان يورده بعضهم للفكاهة أو الإغراب . كما فعل الجاحظ سامحه الله فى كتاب (البخلاء) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » يعنون وعد البعث .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

« مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم . أى أنها تبغتهم وهم فى أمنهم وغفلتهم عنها . و (يخصمون) بفتح الياء وكسر الخاء لالتقاء الساكنين . والصاد على الأصل ، وأصله (يختصمون) سكنت التاء وأدغمت ، ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)

« فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً » أى أن يوصوا فى شىء من أمورهم توصية « وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى لا يقدرون على الرجوع إلى أهليهم ، ليروا حالهم . بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ)

« وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ » أى للبعث « فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ » أى من القبور « إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ » أى يعدون مسرعين. كما فى قوله تعالى[1] (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا) ولا منافاة بين هـذا وما فى آية[2] (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) لأنهما فى زمان واحد متقارب .

(١) [٧٠ / المعارج / ٤٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ، هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

« قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا » أى رقادنا أو مكانه . فيقال لهم « هَـٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » أى المخبرون عن ذلك الوعد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

« إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى بمجرد تلك الصيحة . وفى كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر ، عليه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٥] (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ)

« فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ » أى متنعمون متلذذون ، وفى تنكير (شُغُلٍ) تعظيمُ ما هم فيه وتفخيمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَـٰلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ)

[٥٧] (لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ)

« هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَـٰلٍ » أى فى ظلال الأشجار ، أو فى مأمن من الحرور

« عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ » أى السُّرُر المزينة « مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ » أى يطلبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ)

« سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ » أى ولهم سلام يقال لهم قولًا كائنا منه تعالى . فيكون (سَلَـٰمٌ) مبتدأً محذوف الخبر . أو هو بدل من (مَّا) أو خبر محذوف ، أى : هو سلام . أو مبتدأ خبره الناصب لـ (قَوْلًا) أى : سلام يقال لهم قولا . أو مبتدأ وخبره (مِّن رَّبٍّ) و (قَوْلًا) مصدر مؤكد لمضمون الجملة . وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر . والمعنى أنه تعالى يسلم عليهم تعظيماً لهم . كقوله[1] (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ)

« وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ » أى عن المؤمنين فى موقفهم . كقوله تعالى[2] (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) وقوله[3] (وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ)[4] (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) أى يصيرون صدعين فرقتين[5] (ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ) .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] .
(٢) [١٠ / يونس / ٢٨] .
(٣) [٣٠ / الروم / ١٤] .
(٤) [٣٠ / الروم / ٤٣] .
(٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢ ، ٢٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ، إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » تقريع منه تعالى للكفرة ، يقال لهم إلزاما للحجة . وعهده تعالى إليهم هو ميثاق الفطرة ، كما قاله القاشانىّ . أو ما نصبه لهم من الحجج العقلية والسمعية ، الآمرة بعبادته وحده ونبذ عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

« وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ » أى : وأن أفردونى بالعبادة فإنه السبيل السوىّ . وفى تنكيره إشعار بأنه صراط بليغ فى استقامته ، جامع لكل ما يجب أن يكون عليه . وأصلٌ لمرتبة يقصر عنها التوصيف ، فالتنوين للتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ)

« وَلَقَدْ أَضَلَّ » أى الشيطان وأغوى بالشرك « مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا » أى خلقا كثيرا قبلكم ، فحاق بهم سوء العذاب « أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ » أى من أولى العقل . إنكار لأن يكونوا منهم . وقد قامت البراهين والإنذارات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

[٦٤] (اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)

« هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » أى ذوقوا حرها اليوم بكفركم فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى عندما يجحدون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم . قال الرازىّ : وفى الختم على الأفواه وجوه . أقواها أن الله يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها ، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة الله يسير . أما الإسكات فلا خفاء فيه . وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة . فكما جاز تحركه بها ، جاز تحرك غيره بمثلها . والله قادر على الممكنات . والوجه الآخر ، أنهم لا يتكلمون بشىء ، لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم . فيقفون ناكسى الرؤوس وقوف القنوط اليئوس ، لا يجد عذراً فيعتذر ، ولا مجال توبة فيستغفر . وتكلم الأيدى ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار ، حتى تنطق به الأيدى والأبصار . كما يقول القائل (الحيطان تبكى على صاحب الدار) إشارة إلى ظهور الحزن . والأول الصحيح . انتهى . أى لإمكانه وعدم استحالته . فلا تتعذر الحقيقة . ويؤيده آية[1] (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) .

---

(١) [٤١ / فصلت / ٢١] .

ومن لطائف بعض أدباء العصر مانظمه فى الفونغراف ، مستشهداً به فى ذلك ، فقال :

بنطق الفونغراف لنا دليلٌ ... على نطق الجوارح والجمادِ
وفيه لكل ذى نظرٍ مثالٌ ... على بدء الخليقة والمعادِ
يدير شئونه فرد بصُورٍ ... به الأصوات تجرى كالمدادِ
فيثبت رسمها قلم بلوح ... على وفق المشيئة والمرادِ
وبعد فراغها تمضى كبرق ... ولا أثر لها فى الكون بادِى
تظن بأنها ذهبت جفاء ... كما ذهبت بريحٍ قوم عادِ
وأحلى رنّها فيه لتبقى ... كأرواح تجرد عن موادِّ
متى شاء المدير لها معاداً ... ورام ظهورها فى كل نادِ
يدير الصور بالآلات قسرا ... فينشر ميتها بعد الرقادِ
وهذى آلة من صنع عبدٍ ... فكيف بصنع خلّاق العبادِ ؟
تبارك من يعيد الخلق طرًّا ... بنفخة صوره يوم التنادِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ)

« وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ » أى لو شاء تعالى ، لمسح أعينهم . فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المسلوك لهم لم يقدروا ، لعماهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ)

« وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ » أى بتغيير صورهم وإبطال قواهم « عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ » أى مكانهم « فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا » أى ذهاباً « وَلَا يَرْجِعُونَ » أى ولا رجوعاً . أى أنهم لا يقدرون على مفارقة مكانهم . فوضع الفعل موضعه للفواصل . وإذا كان بمعنى (لا يرجعون عن

تكذيبهم) فهو معطوف على جملة (ما استطاعوا) والمراد أنهم بكفرهم ونقضهم ماعهد إليهم ، أحقاء بأن يفعل بهم ذلك . لكنا لم نفعل لشمول الرحمة، واقتضاء الحكمة إمهالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَن نُّعَمِّرْهُ » أى نطل عمره « نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ » أى بتناقص قواه وضعف بنيته حتى يرجع فى حال شبيهة بحال الصبىّ فى ضعف جسده وقلة عقله وخلوّه من العلم ، كما قال عز وجل[1] (وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا) (ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ)[2] « أَفَلَا يَعْقِلُونَ » أى من قدر على ذلك ، قدر على الطمس والمسخ ، وأن يفعل ما يشاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ)

« وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ » أى حتى يأتى بشعر . وهذا رد لقولهم أنه صلوات الله عليه شاعر أتى بشعر . قاسوه على من يشعر بقراءة الدواوين وكثرة حفظها . وكيف يشابه ما نزل عليه الشعرَ ، وليس منه لا لفظاً لعدم وزنه وتقفيته ، ولا معنى لأن الشعر تخيلات ، وهذا حكم وعقائد وشرائع وحقائق .

« وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ » أى وما يصح لمقامه . لأن منزل النبوة والرسالة يتسامى عن الشعر وقرضه . لما يرمى به الشعراء كثيراً من الكذب والمين ومجافاة مقاعد الحقيقة . ولذا قال تعالى: « إِنْ هُوَ » أى القرآن الذى يتلوه « إِلَّا ذِكْرٌ » أى عظة وإرشاد منه تعالى « وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ » أى كتاب سماوىّ بيّن أمره وحقائقه . فلا مناسبة بينه وبين الشعر بوجهٍ ما .

(١) [٢٢ / الحج / ٥] . (٢) [٩٥ / التين / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ)

« لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا » أى عاقلا متأملا ، لأن الغافل كالميت « وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ » أى وتجب كلمة العذاب « عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ » أى المعرضين عن اتباعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ)

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ » أى مما تولينا نحن خلقه ، لم يقدر على إحداثه غيرنا . « أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ » أى متصرّفون فيها تصرّف الملاك . أو ضابطون قاهرون لها كما قال[١] :

أصبحتُ لا أحمِلُ السلاحَ وَلا   أَمْـلِكُ راسَ البعيرِ إنْ نفرَا

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

« وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ » أى صيّرناها منقادة غير وحشية « فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ » أى مركوبهم « وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ » أى ينتفعون بأكل لحمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

«وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ» أى من الجلود والأصواف والأوبار «وَمَشَارِبُ» أى من ألبانها « أَفَلَا يَشْكُرُونَ » أى فيعبدوا المنعم بأصناف هذه النعم الجسيمة .

(١) قائله الربيع بن ضبع الفزاريّ . من قصيدته التى أولها :

أقْفَرَ من ميّةَ الجريبُ إلى الـــزُّجَّيْنِ إلا الظباءَ والبقرَا

انظر ص ١٥٨ من (نوادر أبى زيد)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ)

«وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ» أى ينصرونهم فيما نابهم من الكوارث.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ)

« لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ » أى لآلهتهم « جُندٌ مُّحْضَرُونَ » أى مُعَدُّون لخدمتهم والذب عنهم . فمن أين لهم أن ينصروهم وهم على تلك الحال من العجز والضعف ؟ أى بل الأمر بالعكس . وقيل : المعنى محضرون على أثرهم فى النار . وَجَعْلُهُمْ ـ على هذا ـ جندا ، تهكم واستهزاء . وكذا لام (لَهُمْ) الدالة على النفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

« فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ » أى فى الله تعالى بالإلحاد والشرك . أو فى حقك بالتكذيب والإيذاء « إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى فنجازيهم عليه . كنى عن مجازاتهم بعلمه تعالى ، للزومه له . إذ علم الملك القادر بما جرى من عدوّه الكافر ، مقتضٍ لمجازاته وانتقامه . وتقديم السرّ ، لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوى السر عنده والعلانية . أو للإشارة إلا الاهتمام بإصلاح الباطن ، فإنه ملاك الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

«أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ» أى جدل بالباطل

بيّن الجدال ، وهـذه تسلية ثانية ، بتهوين مايقولونه بالنسبة إلى إنـكارهم الحشر . تأثرت الأولى وهى قوله (فَلَا يَحْزُنكَ) الآية ، عنايةً بشأنه صلوات الله عليه .

قال الطيبيّ : هذا معطوف على (أولم يروا) قبله. والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس. فإنه خلق له ماخلق ليشكر ، فـكفر وجحد النعم والمنعم . وخلقه من نطفة قذرة ليـكون منقاداً متذللا ، فطغى وتـكبر وخاصم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ، قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ)

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا » أى فى استبعاد البعث وإنـكاره « وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ » أى خلقنا إياه « قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ » أى بالية أشد البلى ، بعيدة عن الحياة غاية البعد . وإنما لم يؤنث لأنه اسم لما بلى من العظام . جامد غير صفة ، كالرمة والرفات. أو مشتق، فعيل بمعنى فاعل . إلا أنه لما غلب جريانه على غير موصوف ، أُلْحِق بالأسماء فلم يؤنث . أو بمعنى مفعول . من (رمّه) بمعنى أبلاه . وأصله الأكل . من (رمت الإبل الحشيش) فـكأن ما بلى أكلته الأرض . وقال الأزهرى : إن (عظاما) لـكونه بوزن المفرد، كـكتاب وقراب، عومل رميم معاملته . وذكر له شواهد .

قال الشهاب : وهو غريب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى فلا تقاس قدرة الخالق على قدرة المخلوقين. وإنما تقاس إعادته على إبدائه « وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » أى فلا يمتنع عليه جمع الأجزاء بعد تفرقها، لعلمه بأصولها وفصولها ومواقعها ، وطريق ضمها إلى بعضها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ)

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ » أى الذى بدأ خلق هذا الشجرمن ماء حتى صار خضرًا نضرًا فأثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صارحطباً يابساً يوقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد . لايمنعه شيء . قال قتادة: الذى أخرج النار من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه. وقيل: المراد بذلكشجر المرخ والعفار (من شجر البادية) فى أرض الحجاز . فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء. روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . والعَفار الزند وهو الأعلى . والمرخ الزندة وهو الأسفل . بمنزلة الذكر والأنثى . وعكس الجوهرىّ فجعل المرخ ذكراً والعفار أنثى، واللفظ مساعد له. إلا أن الأول يؤيده قول الشاعر(١) :

إذا المرخُ لم يُورِ تحت العَفَارِ   وضُنّ بقِـدْرٍ فلم تُعْقَبِ

وقال أبو زياد : ليس فى الشجر كله أورى ناراً من المرخ. وربما كان المرخ مجتمعا ملتفا، وهبت الريح ، وجاء بعضه بعضاً فأورى فأحرق الوادى . ولم نر ذلك فى سائر الشجر .

وقال الأزهرىّ : العرب تضرب بالمرخ والعفار ، المثل فى الشرف العالى . فتقول : (فى كل شجر نار . واستمجد المرخ والعفـار) أى كثرت فيهما على ما فى سائر الشجر . و (استمجد) استكثر واستفضل . وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً . وزنادهما أسرع الزناد وريا . وفى المثل : اقدح بعفار أو مرخ ، ثم اشدد إن شئت أو أرخ . ويقال (فى كل شجر نار إلا العُنّاب) .

---

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٤ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

قال الشهاب : ولذا يتخذ منه مدقّ القصارين . ثم أنشد لنفسه :

أيا شجر العُنَّاب نارك أوقدت بقلبي . وما العُنَّاب من شجر النار

انتهى .

والمقصود أنه تعالى لا يمتنع عليه إعادة المزاج الذى به تعلق الروح بعد انعدامه بالكلية . لأن الذى يبدل مزاج الشجر الرطب بمزاج النار ، وهى حارة يابسة بالفعل ، مع ما فى الشجر من المائية المضادّة لها ، أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضًّا ، تطرأ عليه اليبوسة والبلى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ)

« أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ » أى مع كبر جرمهما « بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم » أى فى الصغر والضعف ثانيا ، بعد ما خلقهم أولا « بَلَىٰ » أى هو القادر « وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ » أى الكثير الخلق مرة بعد أخرى « ٱلْعَلِيمُ » أى الواسع المعلومات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)

« إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ » أى شأنه الأعلى أو قوله النافذ « إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا » أى إذا تعلقت إرادته بإيجاد شىء « أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ » أى فيوجد عن أمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ » تنزيه له مما وصفه به المشركون ،

وتعجيب من أن يقولوا فيه ماقالوا . وهو مالك كل شيء والمتصرِّف فيه بلا وازع ولا منازع . « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت ، فيجازيكم بأعمالكم .

فائدة :

قال ابن كثير : الملك والملكوت واحد فى المعنى . كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن المُلك هو عالم الأجسام، والملكوت هو عالم الأرواح. والصحيح الأول . وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . انتهى .

ولبعضهم : إن الملكوت صيغة مبالغة من الملك . فهو بمعنى الملك التام ، والله هو العليم العلام .